

المثقف في الرواية المغاربية ... قصة إبداع اغتالها الواقع.

The intellectual in the Maghreb novel... a story of creativity assassinated by reality

*علي صوشة سهيلة.

جامعة محمد بوضياف، مسيلة، (الجزائر)، souheyla.alisaoucha@univ-msila.dz

تاريخ النشر: 2022/09/28

تاريخ القبول: 2022/07/22

تاريخ الاستلام: 2021/07/01

ملخص:

لعبت أزمة المثقف دورا هاما في البحث عن وجه يمكن من خلاله أن يعبر الكاتب بقلم مجتمع خاص له عاداته، وتقاليده، وهوية منبثقة من ممارسة خاصة، باعتبار أن الفعل الكتابي هو الجزء الخاص من المبدع يمارس فيه وجوده الإبداعي، ويحاكي خبراته وقدراته الفنية، والإبداعية، والتعبير عن كل هذا وفق منظور رؤيوي يحدد توجه الذات العارفة وفق موقف إيديولوجي، أو فلسفة، أو مذهب، فيعمل المبدع بذلك على مناهضة الظروف وتجاوزها بفعل الكتابة، وكسر رتابتها، ونوازعها السلطوية على الفرد/ المجتمع كون أن الكتابة ما استعصى الحديث عنه، لذا أردنا الحديث في هذا السياق عن تأزمات الذات الكاتبة في الرواية المغاربية، خاصة في ظل التحولات السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، التي انعكست في كتاباتها، وكيف ساقها وعبر عنها في رحلته للبحث عن ذاتها، كل هذا وفق آلية اشتغالية سميت بالتحريب، لنصل إلى بعض النتائج منها: ممارسة التحريب في الرواية المغاربية منطلق من فكرة البحث عن الذات في ظل التأزمات السياسية، الاجتماعية... الخ، النظرة السوداوية في توجهه، وكذا الموت نهاية محتمة إثر الصراعات والتأزمات.

كلمات مفتاحية: الذات، التأزم، الصراع، التحولات، التحريب.

Abstract:

The crisis of the intellectual represented a dynamic labour in search of a face through which a writer can express the pen of a particular society with its own customs and traditions .and identity derived from private practice,

Considering that the written act is the special part of the creator in which its creative existence is exercised ,mimicking its expertise and artistic and creative capabilities,

The expression of all this is based on a visionary perspective, which determines the self-orientation of an ideological attitude, philosophy or doctrine .The creator thus works against the circumstances, overreacting them by writing, and breaking them .And their authoritarianism on the individual/society because writing is so hard to talk about,

So we wanted to talk in this context about the self-defeats written in the Moroccan novel .Especially given the political, social and economic transformations reflected in his writings ,And how he took it and expressed it on his journey to search for himself.

All of this is based on an operating mechanism called experimentation.

Let's get to some of the results :The practice of experimentation in the Moroccan novel is based on the idea of self-searching in the context of political, social, etc .The dark view of orientation, as well as the inevitable end of death following conflicts and crises

Keywords: Self, crisis, conflict, transformation, experimentation.

*المؤلف المرسل: علي صوشة سهيلة ، الإيميل: souheyla.alisaoucha@univ-msila.dz

مثلت الرواية المنفذ الوحيد الذي انكب عنه الأدباء من أجل البحث عن صورهم الضائعة، بين متونها كمؤسسة فاعلة في التعبير، وقدرتها على التماهي مع متطلبات اللحظة الآنية في الفعل الكتابي، كتبت الرواية الذات، والمجتمع، وتحولت لفعل مضاد مناهض يؤسس بذاتية منصهرة تفضي بضياعها، وهواجسها وممكنات الأحلام عندها في ذاكرة على ورق، هذه الممارسة التي أثت لتحول نقدي وجه دراساته بالانطلاق من الأسئلة التي تبنى حول المنتج الفعلي للكتابة ونوعها وطرق تطيرها، من مساءلتها من منطلق كتابة لذات مبدعة تكتب من ذاتها ولذاتها، بوعي ينم عن خصوصية التجربة ورؤيتها وفق منظور رؤيوي ذاتي بآليات اشتغالية جديدة تجعل من الرواية قادرة على الاحتواء والتمدد طول الفعل السردي، وعملية الإبداع والتحويلات التي مست المجتمع كون الكتابة هي فعل يولد لحظة تحرك المجتمع وتحوله، بتمثيلها المرأة التي تكشف عن كل تحول وإدراك جديد لكنه الحياة، ومن ذلك اشتغلنا على هذا الجزء من أجل الخوض في الممكنات التي أتاحتها الرواية الجديدة للكاتب للبحث عن ذاته في ظل الممارسات التي ترتكب في حقه، وكذا محاولة القيام بالفعل المنوط به كونه من صفوة المجتمع، وذلك من خلال البحث في التيمات المشتغل عليها في النص، من خلال إتباع المنهج الوصفي التحليلي الذي يتواءم وفكرة الطرح، وحتى نفصل في هذا الموضوع انطلقنا من صوغ إشكالية مفادها كيف عبر المبدع المغربي عن كل ذلك التيه والتأزم النفسي المتولد عن الممارسات والتجاوزات في حقه سواء على مستوى السياسة "السلطة" أو المجتمع؟

أولاً: أزمة المثقف في الرواية المغربية بين تأزم الذات ومناهضة الواقع

اشتغلت بعض الأعمال الروائية في كل حدث، أو نكسة وقع المجتمع فيها على التعبير ومحاكاة هذه الأزمة، وتسليط الضوء عليها من خلال رفضها لتلك الممارسات، والمناهضة كفعل رد وبرنامج مضاد على ما هو موجود من خلال استيعاب بطل الأعمال الروائية للوضع القائم والتجاوزات، والممارسات الاجتماعية كونه جزءاً من هذا الكل، حيث تخلق فكرة الكتابة من خلال ممارسة ذاتية تنطلق من الوعي التام للواقع المعاش وتحويلها كفعل سردي من خلال ما يعرف بـ "الرؤية مع" لتشكيل النظرة الرؤيوية التي كانت مخاضاً حركياً لمحملة من التحويلات التي لامست الفرد/ المجتمع، وما نتج عنها من اشتغالات وتجاوزات على مختلف الأصعدة.

شكلت الانتكاسات المتتالية للبلدان المغربية سواء كان ذلك قبل الاستقلال أو ما لحقها من أزمات في وقت محاولة التخلص من آثار المستعمر بعد الاستقلال، خطراً على الإنسان المثقف الذي كان يمثل نقطة تهديد من خلال مقدرته على استيعاب نوعية القوانين، والممارسات المطبقة ليجد نفسه في وجه المدفعية كما يقال مهدداً ومحاصراً حيث كان "تصفية المثقفين أولى أولويات النظام"¹ كنوع من حماية المصالح الخاصة، والاطمئنان لعدم وجود قوة أخرى معادية تعبر بلسان المجتمع. مثل هذا الوضع مادة خام للمبدع من أجل صياغة كل تلك التجاوزات في حقه، فلم تكن الكتابة سوى خيط الأمل الذي يكسر عتمة الأزمة التي فجرت سيلاً عارماً من إبداعات اتكأت على التاريخ، والواقع والذات، على الانهزامات والانكسارات، والحلم والضياغ، والكتابة فجاءت "أعمالهم فاضحة للقوانين والحكام والمجتمع والتقاليد"² تحمل بين تخوم متونها مدلولات كل هذا،

الأمر الذي جعل منهم الفئة المستهدفة من خلال التنكيل بهم وبالتالي الحد من ممارسة الفعل المنوط بهم كونهم النخبة العاملة بما يمكن أن يكون بدل ما هو كائن، و تغييب الدور الإيجابي الذي يمثله هذا النوع من التحديات. فلم تكن كتاباتهم في زمن المحنة إلا سير ذاتية تترجم فشلها في محاولة إقامة دورها في تغيير الواقع المعيش، فجاءت الرواية المغاربية محملة بكل هذا التيه، والضياع خاصة عند دخولها في المشروع التحديثي فمثلا أتاحت رواية "أرخبيل الذباب" للجزائري " بشير مفتي" و " الوطن ليس هنا" للمغربي " مراد الضفري" في خوض معترك واقع شخصية المثقف في مرحلة ما، والتي زاد وعيه بالوجود والنظر إلى ما فوق الواقع الاجتماعي في نظيره المؤسساتي، وتصوراتها العادية من زيادة شعوره بالاعتراب، فحالة المثاقفة التي يعيشها و المنبعثة بالوعي السابق عن الثقافة الموضوعية كرمز اجتماعي، قد أخرجته من واقع موجود عام ربما حتى محتم إلى ممارسة مشروعة في الفعل ثم انقلاب الأمر إلى حتمية الاقتناع بالوجود ومصادرة أحقية الفهم لما يجب أن يكون " فهي تحيل بالتوترات والانفعالات النفسية التي تغذيها دوافع داخلية"³ فيصبح المثقف/ الكاتب هنا في حيرة بين الاندماج بالواقع كشخصية موضوعة تحت وقائع اقتصادية، واجتماعية، وثقافية، أو البحث عن الحقيقة كوجه حياة تخضع للظروف في حركية أحداثها" عملت الرواية الجديدة على طمس الشخصيات... لتخلق عالما قاسيا جامدا... عالما يكتفي الإنسان بالنظر إليه.. والأشياء فيه ليست ملكا للشخصيات، بل هي ملك للأشياء"⁴ وهذا ما نلمسه في طبيعة شخصيات رواية " أرخبيل الذباب المناقشة لأسئلة الوجود، والحب، والحياة في فترة زمنية عاشتها الجزائر، نبشت في ذاكرة الوطن، ورسائل الحب، والحرب، وانحزام المثقف "المهمش الذي يصارع أمراضه النفسية"⁵ يخطو على حافة الهاوية مرتمي في تقلبات الذات المتماهية مع انكسارات الواقع يقول " س " بطل الرواية :

- هذه الرواية جزء من التاريخ الكلي للمأساة
- بطبيعة الحال هي جزء مكمل لمأساتي
- أقصد أنك تكتب عن المأساة دائما
- نعم بالتأكيد أنا كاتب مأساوي
- هل هو الجرح إذن؟
- الجرح.. نعم.. نعم.. الجرح."⁶ أصبح ما يكتب بين جدران الكتابة لا يتعدى ولا يخرج عن المأساة التي يتخبط فيها كاتبها في واقعه، المثقف/ الفنان/ الكاتب المبدع الذي انحرق بفتيل إبداعاته المتحولة إلى نار تلسعه كما في شخصية " سمير"

"كرر سمير طوال الليل هذه العبارات

- سأرسم هذه اللوحة بأي شكل

وأنا عبثا أحاول تهدئته:

- سترسمها يا سمير إن لم يكن اليوم فغدا

- آه من الغد.. لا أستطيع.. الغد مخيف جدا..

- بل سترسمها الليلة اطمئن.

- إنني متترفض ولا أملك القدرة على حمل الفرشاة..

.....

تركته مع لوحته تلك. خائفا عليه من حيث لا يعلم. شيء ما أوجعه في العمق. حرك بواطن خوفه وتركه أسير الفراغ.⁷ بهذه المقاطع نقف على حالة المثقف التي تنم عن عجز مضي. فذاك الكاتب "س" التائه بين كوابيس اليقظة والخوف من الحرب/الحب هذه الثنائية التي أثنت لمنطلق السرد وتأزمه وانحزاه، تلك اللعبة السردية التي انخرت ب رسالة انتحار" قررت بعد أن شربت حتى صرت مخمورا أن أبعث لكل الجرائد الوطنية والدولية و وكالات الأنباء والقنوات المسموعة والمرئية رسالة أعلن فيها خبير انتحار الكاتب "س" .. من المضحك أني وضعت سطرا تحت كلمة كاتب حتى يأخذني الجميع بالجدية المطلوبة، وأرفقتها بمعلومات شخصية عني، كما كتبت في رسالة طويلة هي خلاصة هذه الأوراق المحبرة عن أرض سميتها " أرخبيل الذباب " ⁸ حتى فعل الكتابة/ كاتب لم تستطع أن تعطي القيمة المطلوبة ل "س" ولم تنفضه من براثن الانتحار، خط " س" خطاب انتحاره ببصمة " كاتب" وكأنها رسالة في كلمة تختزل كل ما عاشه ويعيشه المثقف ليختار الانتحار كنهاية درامية للواقع " من المضحك أني وضعت سطرا تحت كلمة كاتب " حتى فعل الانتحار لم يكن من المستطاع أخذه إلا بعد الشرب للثمالة حتى اختيار حرف "س" كاسم للشخصية لم يأتي اعتباطا من المعروف أن رمز "س" في الرياضيات هو رمز لقيمة مجهولة وهكذا هو " س" مجهول المستقبل، والحاضر يعيش على قتات ذاكرة وطن مريض، وحب لعين جعلت حياته كابوس أسود يفترس أيامه على تفصيلها من المؤسف. حقا أن يصل حال الكتاب إلى هنا، ليس بالمعنى المفهومي للفعل والممارسة لكن بمقصدية الحالة التي وصل إليها المثقف والتي استنزفت كل احتمالات الكتابة، والوجود، والمنطق، والعقل للوصول إلى نقطة الانتحار.

توحدت أزمة المثقف في الرواية المغاربية نفس التيه والانكسار نجده ينخر في حياة الكاتب الصحفي " طارق" في رواية " الوطن ليس هنا " بعد أن فقد إيمانه بشيء اسمه وطن " ماذا كان يعتقد في وطن لا يؤمن بالشعر ولا بالرواية؟ ماذا كان يعتقد أن يصير في وطن حضور النساء فيه تجارة مربحة أكثر من الكتاب والكلمة"⁹ أثت الرواية معالمها السردية على تأزماتها من خلال " طارق" أيقونة الفوضى والحراب.

مثلت شخصية " طارق" في الرواية الفعل المناهض الذي من خلاله تتجسد الواقعية في الرواية إذ " فضح من خلال شخصية الصحفي فساد مؤسسة الحكم التي تمثل المحرك لباقي التآزمات، إذ أنها هي الخلية الأم التي تتصل بمنظومات مؤسسة للمجتمع من جميع جوانبه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية"¹⁰ شخصية أنهكتها الأحلام المقتولة قبل ولادتها، ووطن مثل مقبرة

جماعية لمعظم شخوص الرواية " أما أنا.. ففكرت أن أفتح عليك، عزيزي القارئ كل الحقائق وأرميك بكل النيران .. وتنضم لقبري"¹¹ كان ضحية الوطن الذي سلبت منه إرادة الفعل وأصبح كامرأة مومس حركتها شهوة السلطة، والقوة والمال. ينم الفعل الكتابي بين أضلع الرواية المغاربية عن تفجر أزمة حول الحاضر والمستقبل لفئة المثقفين في الوطن المغاربي، فهكذا ينهزم المثقف ويغرق في التيه فيمثل بذلك المرجعية السلبية الغائبة على الإصلاح هذا الغائب/ الحاضر الراض لما هو موجود والعاجز عن إيجاد البديل، يعيش قلقاً مع ذاته وعالمه الخارجي فيفضل البقاء على هامش كتاباته والعالم السوداوي الذي تجندت له المؤثرات المساعدة لبقائه ملازماً لهذا السواد.

ثانياً: رحلة المثقف في الكتابة عن الذات في الرواية المغاربية.

1. فلسفة البحث عن الذات:

يسعى الإنسان دائماً في عملية البحث عن ذاته في معترك هذه الحياة التي لا تتوقف عن الحركة والتطور، إذ بموجبها قد تضع ذات الفرد وهي تحاول استدراكها والاندماج معها. في لحظة ما غيبت ذات الكاتب ولم يعد وجوده في نقطة مستقرة بموقف ثابت محتمل، كثرت الأسباب وتضاعفت، ومعنى الوجود في الفعل لم يكن له أصل الحدوث " لفقدان أشياء عزيزة لا تعوض من نحو الأم والأب والأصل والحبيبة "¹² والمطالب الاجتماعية، والسياسية ومجموعة تلك التجاوزات التي أفقدت الذات هويتها، بل أصبحت مطاردة بفعل كل تلك الانهزامات في الذاكرة. هي غربة الوجود والشعور بالضياع، وفقدان مركز ثقل للذات والتي يمكن من خلالها استدراك الفعل في مواجهة الأزمة، غير أن فعل الاغتراب، وفقدان الإحساس بالماهية خلق توتراً وحالة من الاستنفار في تأزم الوضع فكثرت المسببات وتضاربت الأفعال في القدرة على الفعل من الترك والبحث عن لازمة الوجود لإنقاذ ما تبقى من الذاكرة.

ظهرت الذات المغيبة والمتصارعة في إدراك تلك التحولات التي تدور في عالمها حيث انفلت منها الإحساس بفاعلية الدور، وقيمة الكتابة، والحلم، والحب خاصة وأن شخصية البرنامج السردية شخصية مثقفة ولعل هذا ما ضخم فعل التأزم وجعل تقبل الأمر على ما هو عليه نوعاً من استحالة التأقلم والمسبب لحالة الضياع التي ألغت قيمة المثقف، وغيبت كل مقدرته في ممارسة الوجود وقيامه بواجبه المنوط به كون أن الكتابة " قبل كل شيء هي الحرية في ممارسة الوجود "¹³ فصورت الرواية التجريبية هذا الانعدام بالإحساس بالوجود بصيغة "موت الصبر وانبعاث الحلم المستحيل، الحنين إلى الماضي، ... الغربة عن الطبيعة والمجتمع والأصحاب والذات جزء من تصاعد المبدع في معراج النمو. الاغتراب كامن في كل الأزمنة والأمكنة والحضارات ولكن تعبيراته مختلفة... المبدع يشعر أنه مغترب عن أرضه وحضارته ولغته وذاته ويجد نفسه سلسلة من الاستيلايات تبدأ باستيلايات الحرية "¹⁴ هكذا ضاعت أقدار الشخصية بطريق ضبابي يخفي أكثر ما يظهر، الحياة واضحة والعيش فيها ضبابي لا يكاد يتسع لحلم واحد " وهي تعلم أن الحرب لم تكن واضحة.. لا حبنا ولا الحرب.. كل شيء لم يكن واضحاً..¹⁵ مثلت " الحرب " في الرواية غواية السرد أما الحب فهو الفعل المحظور من الكلام في مجتمعنا وبالتالي لا الحب ولا الوطن كانا منفذاً لهذه الذات " كل أحلامي

تبعثرت كأوراق خريف، رقصت بها الرياح.. لذلك فأنا لا وطن لي.. لا وطن لي "16 كل شيء أصبح بين مساء وصباح طيف ساعة ومتعة فراغ بين برائين الذاكرة، لا شيء غير التيه والعدم.

توحدت سبل الضياع وتنشّطت على مستوى الإبداع المغاربي بين سياسة الوطن ومحراب الحب فغدت الرواية وجودية بكل أحداثها وتآزماتها ووتيرة سياقاتها، لم يبق سوى حلم البحث عن الذات في كل مشذب سردي عما يعطيه شعور الوجود " فآثر أن يترك الإجابات معلقة، ليبحث عن تلهيات تصرفه عن الانتباه المزعج لحالته "17 والبحث عن بديل/المرأة، هاهو " طارق " يبحث في " زهرة " أمل البقاء ويجدها متنفسه الأخير " زهرة هي العتبة التي لا بد أن تزهر عليها كل أحلامي ويصبح للوطن معها ألف معنى، ولا وجود لي إلا عندما سأقول أحبك "18 يمكن اعتبار شخصية " زهرة " حالة نفسية كان لا بد " لطارق " أن يمر بها لتفويض كأس التأزم، وغربة الذات.

وفي نفس الاتجاه يذهب الكاتب "س" في حذو الطريق نفسها في البحث عما يمكن أن يعيد له بعض من فصول حكايته " أنوثتها ظلت دائما تصطادني مثل الشمس التي تسطع فوق خرابات هذا العالم وتعطي للصورة شكلها البهي "19 فغدت " ناديا " هي الوسيلة التي سيحرر بها نفسه من ظلمة الذات وتآزمها " أنا لا شيء وبك سأصبح كائناً حقيقياً "20 كائن موجود مرئي مكتمل الحلول، له ملامح تشبه الأحياء . لا يمكننا أن نحس بوجودنا إلا بأفعال ملموسة يمكننا أن نرى فيها النتيجة والمنجزات، سندرك وقتها أننا ننتج وأن هذا المنتج إنما يتأتى من حركة تشترك فيها الآليات العقلية والجسمية والمشاعر ... الخ كذلك كان من "س" اعتبار " ناديا " عالمه الحقيقي الذي يحس بوجوده و " طارق " مثلت له " زهرة " هي المحرك الحياة غير أن " الصادقون لا مكان لهم في قصص الحب ولا في تاريخ البشرية "21 غادرت " زهرة " دون أن تعطيه فصلا آخر من فصول حكايته، كانت طلسمًا ساحراً يحتويه في سرور، ومتعة إحساس بالذات وكأنها وظيفة من وظائف الأعضاء " رحلت الفتاة التي علقث عليها قبل شهور كل آمالي في النجاة "22 فانكسر بذلك مجدافه الذي يلف به عالمه القابع بين حيطان غرفة لا يزينها سوى بعض الأوراق والأقلام، و " ناديا " اتخذت من الانفصال هي الأخرى مشروعها للابتعاد " إن سباقنا مع الزمن هو من أجل الانفصال لا غير .. إن انفصالنا حتمية تاريخية "23 وكان كل شيء عنده ينتهي بمجرد أن يبدأ، بعد هذا السقوط المدوي يستدرك " طارق " في البحث عن ذاته لكن هذه المرة كانت الوجهة محتمة لأبعد حد ل " فلسطين "

-أتظن يا خليل أي أتيت إلى فلسطين فقط بحثنا عن الموت وهربا من هذه الدنيا الكئيبة؟..

....

-أنت مخطئ يا خليل.. أتيت لفلسطين لأنها آخر قضية لم أحسرها، أتيت إلى هنا كي انتصر لنفسي التي هزمت في كل معارك الحياة، كي أغادر هذه الدنيا وأنا مدافع عن مبادئتي.. ... أما أنا فأصارع الموت ليدفني في هذه الأرض العطرة. أتعرف لماذا؟.. لأنني أشجع من محمود درويش وأعرف أنني لن أصير يوما ما.. أريد.. سأعود يا خليل. سأعود "24 لم يكن " طارق " ينتظر من المهجرة هذه سوى تركية ذاته بموت مشرف حمل مغزى ومنفعة بعد أن ضاعت الذات وانعدم الوجود كتأسيس نضالي يعمل على

بلورة تلك الأحلام الطوباوية، نهاية الرحلة في البحث عن الذات في نقطة بدايتها، ظل " طارق " يبحث عن وطنه وعن ذاته وكيانه ليذكر بالأخير أن " الحب وحده سيشفيك، ووطنك ليس هنا، ووطنك ليس أحلامك التي فشلت، ووطنك هو القلب الذي يجبك وليس الموت والرحيل.. "25. لتكن البداية في " الرباط- القطر المغربي يوليو 2014 "26 وبداية الوجود والانتصار في الجزء الثاني من الرواية " أنت أو لا وطن".

كانت قضية البحث عن الذات والوجود في رواية أرخبيل الذباب أكثر تعقيدا لعل هذا راجع إلى ما كانت تمر به البلاد آن ذاك / العشرية السوداء وتأثيراتها على الفرد/ الجماعة " كنت أقول دائما بأن هناك معنى لوجودي وحتى لنضالي. كنت أشعر بأن هناك حقيقة ما يجب التمسك بها. الانتصار لها ولكن الآن. لم يبق هناك ما من شأنه أن يملاني بتلك النشوة. أشعر بالشيخوخة. ثلاثون سنة فقط تحولت خلالها إلى عجوز لا يقدر حتى على التنقل بين بيته والعمل "27 في الحياة العادية هذا العمر ماهو إلا بداية للنضج والانطلاق لممارسة الحياة غير أنه أخذ بعدا آخر في الرواية كبداية لشيخوخة أفقدتها الظروف والمشاكل، لم يكن طريق البحث عن الذات ومعرفة الوجود في هذه الرواية إلا مسلكا للوصول إلى نهاية محتومة وهي الموت. كان الموت خاتمة الحدث السردي لكل من الكاتب "س" و" سمير الهادي" ففلسفة الموت " سلطان محرر وقاتل "28 والاختفاء الغامض ل" ناديا" والهروب ل" محمود البراني" و" عيسى"، نهاية هشة تترجم كل تلك المشاشة في " بلد لا يملك شروط البقاء "29 بلد وكأنه يقول لك حيث شئت مت من يحس بك ليس هنا " أما (س) ... لقد قرأ الجميع بيان انتحاره على صفحات الجرائد الوطنية، ... أما ناديا فقصة اختفائها مازالت تثير حكايات وحكايات لا يعلم أحد أين هي الحقيقة من الخيال.. وبالنسبة لي كانت رحلتي إلى الصحراء.. هي آخر أسفاري "30 هكذا كانت النهاية نهاية مفتوحة على كل الاحتمالات الممكنة يكتبها القارئ في خياله على حسب موقعه في هذا البلد فالرواية ليست أكثر من صوت مخنوق مكتوب غير مسموع، حقيقة هي رواية " مراد الضفري" إذ يعترف بين طيات ذاكرة الرواية أن روايته ليست أكثر من شخصية يتعانق معها جزء كبير من الحياة " إنها روايتي الأولى كان لا بد لي من أن أفرغ نفسي من نفسي حتى أوصل الكتابة "31 ورواية " الوطن ليس هنا" تعد أول تجربة روائية للكاتب، نفس الأمر نجده عند " بشير مفتي" حيث يقول: " عالم يتشكل أمامي شخصيات تهرب من الأرض إلى الورق، تتحول إلى كينونات تختلط بكينونتي فأصاب بالأسى، إنها ليست من لحم ودم ولا من ورق، إنها جزء فقط من أرض الإشارات التي تلمع في الذهن بالذاكرة، بالعقل بالحواس ثم تنفجر فجأة، اللغة تجبظ عزائمي لأنها تفرج بصعوبة عن هذا الذي يحدث لي."32 لكنها تبقى بالعموم قصة مجتمع تتكرر ملامحها كل يوم من آخر وآخر لما لا نهاية لها.

2. الموت نهاية حتمية للمأساة:

رائحة الموت تنبعث من بين ركام العبارات تسقط كل محاولات الهروب، لا يجد الكاتب إلا الكلمات لتحمل معه هذا الخوف الكبير، تهديدات لا تياس ولا تمل، ترقب الانتهاء والموت في فوضى أحداث الذاكرة دون وجود لجرمة كاملة، لعبة الموت بسلاح الواقع / الشاهد، يتمحور السرد في وصف حالات الشخصوس والمدينة الضائعة كواجهة حتمية للموت من خلال

رصد الأسباب، والحالات الانفعالية، والوضع النفسي، والوقوف على مسبباتها من أجل إعطاء تبرير لنقطة الوصول التي أدت لفعل الموت بشواهد كلامية للحدث السردي المتأزم³³ لذلك لم يكن الموت إلا تحصيلا حاصلًا لمجموعة القيم المنهارة في عالم الشخصية، وتلك التجاوزات الممارسة في حقه فحاء على شكل " تساؤلًا استفهاميًا استنكاريا يطن شعورًا بالاحتجاج والسخرية والرفض وإحساسًا بلا منطقية الوجود وافتقاره للتنظيم"³⁴ ليصل هذا التساؤل لذروة الإجابة المتمثلة في الموت ذاك الخيط الرفيع الذي يوصل أحداث الرواية ببعضها البعض في سرد حركي مستمر، يلبس الشخص كفن الموت كل يوم سواء بانتحار لجعل كرسالة تقول أكثر مما تخفي وكأنه بذلك فعل ينتظر منه المنتحر برنامجًا مضادًا لقضية لم يُسمع لها بالكلام فلم يكن الموت إلا قناة بديلة للفعل

-أظن أنه كان يريد أن يقول لنا شيئًا وأنه لم يكن يريد أن يموت فقط..

-جثته كانت مثقوبة بالرصاص..

-تمامًا مثل لوحته السوداء.. أين هي الآن؟"³⁵ في هذا المقطع يتحدث الكاتب عن " سمير " ولوحته التي عنونها " لوحة رسمها فنان وانتحر " وكان يموته يجبك قصة أخرى تتعدى فهما الضيق لمعنى الانتحار، تتوالى المقاطع التي صفت مع بعضها المنبعثة منها رائحة الموت يقول: " لم يعد النوم يزورني إلا عندما يصل الإنهاك حده الأقصى وعندما يتوازي خط الحياة بخط الموت، هناك فقط يمكنني أن أغرق في غيبوبة أتمناها طويلة، لكن الكابوس يعود فجأة. من مكانٍ ما ليعاود محاولته الجريئة في إثارة الرعب بداخلي وجعلي أرتعش من كل حركة أشك فيا. أصوات كثيرة تصلني من بعيد. تتداخل بالرصاص والصراخ والفرع العام الذي استولى هكذا على مدينة كبيرة كالعاصمة إنه الجنون حتما وعندما يدخل الجميع في حالة الهذيان. يصير الموت هو الوحيد القادر على إخماد نفس الرعب.. ذلك الذي أصبح هو سيد اللحظات الأليمة لشعبه بأكمله " ³⁶ فإن لم يكن الموت اغتيالًا أو نتيجة حرب فسيكون " نتيجة مرشحة عند المغترب ذاتيا، تتبع من سيطرة عاملي الرتبة والملل... مما يشعره بأن الحياة لا تستحق أن تعاش أكثر من ذلك " ³⁷ فتدخل الذات في حالة هذيان مستطرد عن أفعال قمعية تحد من وجوده كفاعل معتمد، مما يسقطه في موت بطيء نظرا لتأزم الوضع، و الضياع " داخل الغرفة المغلقة عليّ. أشاهد جثتي تسبح فوق دماء تجرفها إلى أرض أخرى. أتأمل موتي الذي يستفتر الروح ملاء العين. أبصر مخاوفي كلها وقت الوداع الأخير. " ³⁸ ليكون للموت الكلمة الحاسمة في نهاية معظم شخصيات الرواية.

أث الموت في الرواية كعنصر من عناصر السرد، كما تم الاشتغال عليه بطريقة مغايرة فبعد أن كان - الموت - فعلا يحدث ضجة السرد ويؤزمه في نقطة ما، كنقطة تحول في الحدث السردي، أصبح الموت قصة يتأسس عليها السرد من بدايته لنهايته إذ اعتبرت بعض الموضوعات السردية كالموت والفقر والحروب... الخ كبناء سردي لعملية الحكيم كما اتخذ الموت في معظم الروايات حلا يفرج في ضخمة الفعل التأزمي مثلما هو الحال في رواية "أرخبيل الذباب" .

اشتغلت أزمة المثقف / الكاتب في الرواية المغاربية على تسليط الضوء عن الوضع العام المتسبب في هذه الأزمة، من خلال سرد القصة الدرامية التي يعيشها الكاتب والتي نقلها عن طريق الكتابة التي مثلت له نافذة يتنفس منها الصعداء، كل هذه الأحداث كانت تكتب على طول خط الإسنادات التأويلية من البرنامج والبرنامج الموازي في توازي القيمة النفعية والسلبية للكاتب ودورها في فضح الأحداث السردية، ومن هنا خلصنا إلى جملة من الاستنتاجات أهمها:

- مثلت الرواية الجنس الوحيد الذي استطاع الروائي أن يفيض بكل ما عنده من تأزمات فكان لا بد للرواية أن تتطوع لخدمة هذا الجانب، ولعل هنا تكمن قوة الرواية من حيث أن لها القدرة على المسيرة والمشى جنباً لجنب مع متغيرات الواقع.

- ارتسمت معالم البطل المثقف في الرواية بأفق منحصر في سوداوية التضارب و التخوف من مستقبل مجهول، أو مستغرماً بالتفكير في حتمية الموت وكأنه انتهى قبل أن يتدب.

- الوقوف على هامشية الحياة، وضباية الفعل من الترك، التخذر بين النواصب الاجتماعية والاقتصادية، والسياسية، هذا هو دور المثقف، والذي عمل على تحويله لبناء سردي ما ينفك الكاتب يبحث فيه عن بعض الراحة من أجل إيجاد منفذ للنجاة، وتهمجير تلك الوسوس التي أثقلت الذاكرة والتبرع بها إلى الفعل الكتابي.

- اشتغال المبدع المغاربي على تقويم نصه وتأسيسه على واقعية اجتماعية، تساير التحولات والمطبات التي عرقلت الذات في إثبات وجودها، من خلال الدور الفعال الذي تمثله الكتابة.

- النظرة السوداوية في الرواية المغاربية إثر الانهزامات والتأزم الذي عاشه المبدع المغاربي ليؤسس له نهاية محبطة من خلال الموت.

_ مثلت الرواية الجنس الوحيد الذي استطاع الروائي أن يفيض بكل ما عنده من تأزمات، فكان لا بد للرواية أن تتطوع لخدمة هذا الجانب، ولعل هنا تكمن قوة الرواية من حيث أنها لها القدرة مع مسيرة والمشى جنباً لجنب مع متغيرات الواقع.

المراجع:

أ/ الكتب:

● العربية:

1. أحمد محمد عطية: الرواية السياسية، دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية، مؤسسة مطابع معتوق، دط، دت.
2. أميرة علي الزهراني، الذات في مواجهة العالم، تجليات الاغتراب في لقصة القصيرة في الجزيرة العربية، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب، 2007.
3. بشير مفتي: أرخبيل الذباب، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر 2000 .
4. حسن مجراوي: بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي، ط1، الدار البيضاء المغرب، 1990.
5. عبد الاله الصانع، الخطاب الشعري الحدائوي والصورة الفنية الحدائوي وتحليل النص، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب 1999.
6. محمد الباردي: الرواية العربية والحدائوي، دار الحوار للنشر و التوزيع، ط2، سوريا، 2002.
7. ممراد الضفري: الوطن ليس هنا، مطبعة سومماكرام، د ط، د ت، الدار البيضاء المغرب.

ب/ المقالات:

8. أحمد راج خالد: الكتابة في المنظور الحدائثي، مجلة الموقد، ع5، 2010.
9. حورية قادي، الخطاب الايديولوجي والتجريب، مجلة الوفاء، ع3، 2002.
10. سمير يحي، صورة المثقف في الرواية الحدائثية، مجلة الموقد، ع5.
11. محمد سالم، الحدائثية وتحليلاتها في الرواية العربية، مجلة الأنبار، ع6، 2010.

الإحالات

- 1- حورية قادي، الخطاب الايديولوجي والتجريب، مجلة الوفاء، ع3، 2002 ص77.
- 2 - المرجع السابق، 70.
- 3 - حسن بجاوي: بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي، ط1، الدار البيضاء المغرب، 1990، ص302.
- 4 - أحمد محمد عطية: الرواية السياسية، دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية، مؤسسة مطابع معتوق، دط، دت، ص95.
- 5 - أحمد راج خالد: الكتابة في المنظور الحدائثي، مجلة الموقد، ع5، 2010 ص12.
- 6 - بشير مفتي: أرخبيل الذباب، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر 2000 ص15.
- 7- الرواية، ص17-18.
- 8- الرواية، ص11.
- 9 - مراد الضفري، الوطن ليس هنا، مطبعة سومماكرام، دط، دت، الدار البيضاء المغرب ص9.
- 10 - سمير يحي، صورة المثقف في الرواية الحدائثية، مجلة الموقد، ع5، 2010 ص60.
- 11 - الرواية، ص10.
- 12 - عبد الاله الصانع، الخطاب الشعري الحدائثي والصورة الفنية الحدائثية وتحليل النص، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب 1999، ص56.
- 13- سمير يحي، صورة المثقف في الرواية الحدائثية، ص56.
- 14 - عبد الإله الصانع، الخطاب الشعري الحدائثي والصورة الفنية الحدائثية وتحليل النص، ص301.
- 15 - بشير مفتي، أرخبيل الذباب، ص10.
- 16 - مراد الضفري، الوطن ليس هنا، ص89.
- 17 - أميرة علي الزهراني، الذات في مواجهة العالم، تجليات الاغتراب في لقصة القصيرة في الجزيرة العربية، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب، 2007، ص75.
- 18 - مراد الضفري، الوطن ليس هنا، ص51.
- 19 - بشير مفتي، أرخبيل الذباب، ص28.
- 20 - الرواية، ص138 .
- 21 - مراد الضفري، الوطن ليس هنا" ص115.
- 22 - الرواية، ص115.
- 23 - بشير مفتي، أرخبيل الذباب، ص10.
- 24 - الرواية، ص107-108.
- 25 - الرواية، ص170.
- 26 - الرواية، ص174.
- 27 - بشير مفتي، أرخبيل الذباب، ص24.
- 28 - الرواية، ص36.
- 29 - الرواية، ص24.
- 30 - الرواية، ص143.

- 31 - مراد الظفري، الوطن ليس هنا، ص 140.
- 32 - بشير مفتي، أرخبيل الذباب، ص 106.
- 33 - ينظر: محمد سالم، الحداثة وتجلياتها في الرواية العربية، مجلة الأنبار، ع6، 2010، ص7.
- 34- محمد الباردي، الرواية العربية والحداثة، دار الحوار للنشر و التوزيع، ط2، سوريا، 2002، ص344.
- 35 - بشير مفتي، أرخبيل الذباب، ص142.
- 36 - الرواية، ص81.
- 37 - أميرة علي الزهراني، ص 83.
- 38 - بشير مفتي، أرخبيل الذباب، ص 85.